الفصل الثانى عشر

التأثير العالمى للتقنيات الجديدة

بقلم: دبليو. رسل نويمان

تتابع التنبؤات المثيرة التقنيات الحديثة كظلها. تليفزيون الأقمار الصناعية سوف يبشر بالقرية العالمية. الإنترنت سوف يحول الإذاعة إلى بث ضيق. الصحفيون والكتّاب المرموقون سوف يمكنهم الاتصال بحرية وربحية على مواقع الإنترنت، وأصبحوا لا يعتمدون وعلى وسائل الإعلام الكبرى لنقل رؤاهم إلى جمهور مشاهدين غير مهتم.

فى رأيى أن هذه التكهنات ليست عديمة الفوائد، وهى مبنية على أساس فهم محنك لتطور التكنولوچيا، واقتصاديات وسائل الإعلام، واستراتيچيات المؤسسات، وتوقعات جمهور المشاهدين. ولكنها أيضًا قد تخطئ الهدف؛ بسبب بصفة رئيسية، وجود طرق كثيرة لكى تفهم بطريقة خاطئة بدلاً من الفهم السليم. علاوة على ذلك، تميل معظم السيناريوهات عن المستقبل إلى تسليط الأضواء على تغيير واضح (مثل انفجار نمو مواقع الإنترنت فى جميع أنحاء العالم أو الانحدار الدرامى لتكاليف الاتصالات العالمية) وافتراض أن كل شىء آخر سوف يظل ساكنًا - مما يصور القولبة الاستراتيچية الخاطئة.

يلتقط المتشككون سريعًا أخطاء التنبؤ المألوفة ويسخرون من الجهد، وكثيرًا ما ينتقدون ما يرونه سذاجة الحتمية التكنولوچية[1]. أنا شخصيًا أميل إلى تشجيع التكهن، مع ذلك، بالتحديد لأننى لا أشك فى الحتمية التكنولوچية. معدل التغيير

فى الاتصالات الإنسانية سريع الآن، بصفة خاصة. نحن نقوم الآن بتصميم وإنشاء بنية تحتية لاتصالات رقمية عالمية. هندسة وتكاليف إنشاء هذه الشبكة الإلكترونية العالمية تخضع لسيطرة الإنسان ولا تقررها فقط الطبيعة التكنولوچية نفسها. وهكذا، يصبح التكهن حول «آثار التكنولوچيا» على الأخبار، ومؤسسات الأخبار، ودور الصحفيين، واقتصاديات الصحافة، وتدفق الأخبار، واحتمال تغير مفاهيم الجمهور عن العالم السياسى، مرادفًا للتفكير حول كيفية تصميم التكنولوچيا لكى تخدم أهداف الإنسان، عملية جديرة بالاستحقاق[٢].

التكنولوچيا لا تحدد، ولكنها يمكن أن تحدث اختلافًا. التقنيات الجديدة كثيرًا ما صممت لكى تفعل ما كانت تفعله التقنيات السابقة بأسلوب أفضل قليلاً، وأسرع، أو أرخص. نتيجة لهذا، هى لا تتكهن بتغييرات قريبة للتفكير التصورى حول مهام وفرص جديدة، وتعيق النقاش حول إمكانية ظهور كيانات بديلة، وتقلص الجدل حول القيمة الاجتماعية للمؤسسات الناشئة.

هناك ظل آخر يتابع التغيير التكنولوچى، وهو اقتصاد المصالح الذاتية للمؤسسات الكبرى التى تتربح من التقنيات الموجودة. تراقب الصحف ظهور الأخبار على مواقع الإنترنت بإعجاب مؤلم. التنفيذيون لأخبار شبكة التليفزيون يتابعون برامج الأقمار الصناعية، والكابلية، كما يراقب المقامرون الأخبار من حلبة سباق الخيل إنهم أيضًا مقامرون وهم يدركون أن أسهم المؤسسات فى خطر[٣].

دراسات المتخصصين التى كتبت عن تأثير وسائل الإعلام الجديدة على الجمهور، شديدة التباين. يوجد تقليد متفائل، يمثله متحمسون مثل نيكولاس نيجروپونتى، وچورچ جيلدار، ومايكيل ديرتوزوس؛ الذين وجدوا أنها تعظيم للفردية، والديموقراطية والتفويض فى عالم الأرقام[٤]. ويوجد أيضًا تقليد ناقد يمثله، من بين آخرين، مارك الينى، وروبرت ماكتشيسنى، وڤينسيت موسكو، الذين بدا أنهم مقتنعون أن العكس فقط هو الواضح فعلا[٥]. وهذا النص سوف يحاول أن يشق طريقًا وسطًا بين هذين القطبين، وهذه الاستراتيچية تملى علينا أن نتأمل جزءًا من هاتين الرؤيتين، يركز الأول على طبيعة التكنولوچيا، والتالى على بناء النظام السياسى والاقتصادى الذى يولد التكنولوچيا. سوف أركز على التفاعل بينهما.

بالتباين مع الفصول الأخرى فى هذا الكتاب، هذا الفصل لن يلاحق ميول الانتخابات، وفحص نصوص البلاغة السياسية، وتحليل توازن السيطرة بين المراسلين والرسميين فى تحديد تدفق وتشكيل الأفكار السياسية. بدلاً من ذلك، يفحص تقنية وأسلوب بناء الأخبار، وإذاعتها، واستهلاكها النهائى بواسطة جمهور متطلع. رؤيتى تاريخية عريضة، رغم أن فكرتى الرئيسية تحوم فى اللاتاريخى. فرانك فوكياما، لاحقت متوالية دائرة من التقدم التكنولوچى، والتعديل المؤسسى، وأجادل أن هذه الدائرة كانت متفردة[٦].

تقنية صناعة وتوزيع الأخبار

كانت هناك من قبل تقنيات جديدة لوسائل الإعلام. كان يوجد تقليد للتنافس بين وسائل إعلام الأخبار فى معظم المجتمعات الصناعية، لماذا ادّعى المحللون أن الإنترنت يغيّر كل شىء؟ هل كان هذا مجرد مبالغة من الشركات التجارية الناشئة التى تحاول بيع سلعها؟ رغم عدم وجود قصور فى المبالغة، إلا أن النقاش الأساسى أن الإنترنت يختلف جذريًا عن نظائره السابقة، هو صحيح تمامًا. المفهوم الأساسى هو التجميع الرقمى[٧].

تاريخيًا، تم توظيف - على أكمل وجه - مجموعة فريدة من تكنولوچيات النظائر للحصول على وتوصيل الأخبار وبرامج الترفيه فى أشكال مختلفة. التقنيات البدائية لمنادى المدينة وإعلان الحائط حلت مكانها صحف البنس الواحد والطبعة الإضافية للأخبار السريعة. التلغراف والكابلات البحرية الأخبار الفورية من المواقع البعيدة. التصوير وصور الطباعة الحجرية سهلت إعادة إنتاج الصور الساكنة. نشأت مجلات مع نوعية طباعة راقية، إصدارات دورية أسبوعية أو شهرية، وجماهير قرّاء أكثر تخصصًا. أفلام الأخبار فى دور السينما، بالصوت والحركة لأخبار الأحداث الواقعية، مع عناوينها الدرامية، والموسيقى المثيرة التى تصاحبها، والمذيع اللاهث، جميعها كانت متوافقة مع هذا العرض المسرحى للأخبار. . احتل الراديو والتليفزيون فى النهاية مكان أفلام الأخبار والطبعات الإضافية، دون الصحف والمجلات. كانت النتيجة فى معظم الديموقراطيات الصناعية ظهور وسائل إعلام مربحة سعيدة، ونابضة بالحياة، ومتنافسة، تعتمد

بقوة على مصادر دخل الإعلان ويلعب كل منها دوراً لمصلحته التكنولوچية. وهكذا، سادت أخبار راديو السيارات طوال فترة القيادة. صحف المساء أفسحت الطريق لأخبار المساء على الشبكة. صحف الصباح ومجلات الأخبار ازدهرت إلى ما يقرب من الاحتكار.

إلى الآن فى تاريخ نشوء وسائل الإعلام، نشاهد نمطًا متماسكًا. ظهرت وسائل إعلام جديدة مع سمات تكنولوچية مختلفة، سعيا وراء الأفضل لتلبية احتياجات الإنسان. فى أغلب الأحيان، عدلت وسائل الإعلام القديمة (مثل الراديو) نفسها، مستخدمة صفتها التكنيكية للاستمرار فى الساحة بتقديم شكل جديد فريد.

ولكن تغيرت جميع الأشياء مع ظهور الإنترنت. عندما بدأت كل وسائل الإعلام المتخصصة فى التحول إلى شبكات رقمية متصلة داخليًا، أصبحت البرامج السمعية (أوديو)، والمرئية (ڤيديو)، والنصوص التى تصاحبها الرسوم، قابلة للتبادل. صحف الصباح التى تسلم إلكترونيًا، يمكن طباعتها بسرعة فائقة على طابعة رقمية دقيقة فى المنزل، أو تسجيلها لتسمع أثناء المشى أو فى السيارة، أو يمكن رؤيتها على جهاز الكمپيوتر. الاتصال الرقمى يعوق احتمال ظهور تقنية قف ـ وحدك؛ كل شىء أصبح متصلاً. الاتصال الرقمى ألغى «تفرد» أى من التقنيات السابقة[٨].

نتيجة لهذا، لم يعد سوق الأخبار الآن توازنًا مستقرًا. تعريفات الأخبار ـ كأمر بديهى ـ وتعريف جدارتها أصبحت الآن موضع تساؤل. التهديدات والفرص الغزيرة. إذا كانت التقنيات الجديدة تهدد الوسائل الراسخة، من الذى سوف يستفيد؟ مع التنافس الجديد، والغزارة، هل ستنتقل السيطرة على برامج الأخبار، وتشكيل الأخبار من احتكار أقلية صفوة الأخبار إلى جماهير المشاهدين والقرّاء وجماعات المجتمع، وجماهير القضايا؟

من الذى يسيطر على الأخبار؟

على السطح، تبدو هذه النظرات التكنولوچية واعدة. مع انخفاض تكاليف وتعقيدات جمع الأخبار ونشرها، أنواع جديدة من الاتصالات المبنية على أساس

المجتمع والمصالح الخاصة يمكنها أن تحتل مكان أشكال الأخبار التقليدية ومنابرها. ما كان منها يتطلب إضاءة خاصة، وفريقًا من مهندسى الصوت، ومصورًا، ومعملاً سريعًا لتحميض الأفلام، وأخصائى مونتاج، أصبح الآن فى متناول يد مراهق يحمل آلة تصوير ڤيديو. التعريف التقليدى لسوق الأخبار ـ صحيفة وتليفزيون ـ لمنطقة حضرية محدده، تكملها مجلة أخبار أسبوعية وقناة تليفزيون كابلية محلية بعض الأحيان ـ تحول إلى أثر تكنولوچى تاريخى[٩]. تعريف سوق الاتصالات، كما يؤكد أى سياسى أو صحفى، هو كيان سياسى مهم. هذه التغييرات يمكن أن تكون عميقة.

جرت محاولات سابقة لاستخدام التكنولوچيا فى تفتيت احتكارات البرمجة المحلية. مثلاً، البلاء الذى أصاب تواصل الجمهور مع التليفزيون العام الكابلى، أن برامج المجتمع المحلى كانت تعرض فى وقت محدد متاح فقط لقطاع صغير ممن قد يهتمون بها[١٠]. أكثر من هذا، لم يكن هناك أى تقليد للترويج لاجتذاب الاهتمام[١١]. وسائل الإعلام الرقمية الجديدة، تسمح باتصالات لا تقيدها الافتراضات والقيود التكتيكية لأشكال محددة من الإذاعة يمكن تقديمها. برامج تناسب جمهور المشاهدين الصغير والمصالح الخاصة. بالإضافة إلى ذلك، المشاهدون كانوا أحرارًا أن يقدموا برامج ڤيديو رقمية لأصدقائهم وجيرانهم ممن يهتمون، كما يقومون بتقديم قصاصات أخبار. اقتصاديات جمع الأخبار ونشرها لا تتطلب بالضرورة جماهير مشاهدين ضخمة وقيم إنتاج تجارى.

ما البينة التى لدينا أن وسائل الإعلام الرقمية الجديدة سوف تنجح فى إثارة أخبار المصالح الخاصة واتصالات المواطنين رغم حقيقة أن نظائرها السالفة قد تكون فشلت؟ البينة هنا كانت خادعة؛ الوقت ما زال مبكرًا لتغلغل التكنولوچيات وتطور استخدامها. المتحمسون والمتشككون سويا كانت لديهم روابطهم ونوادرهم. ولكن بعض الدروس يجب استيعابها.

فى بحث قامت به «إم. أى. تى. ميديا لاب»، افترضنا أن من قاموا مبكرًا بتطبيق تقنية كمپيوتر المنزل، ربما كانت لديهم، بفضل اهتماماتهم التكنولوچية وخلفياتهم، أنماط من استخدام (الشبكة Web) التى تختلف تصنيفيًا عما لدى جمع غفير ممن الآتين الجدد عندما ازدادت سريعًا معدلات الدخول من ٣٠٪ إلى ٦٠٪ من البيوت الأمريكية[١٢]. وهكذا قارنا من قاموا بالاستخدام مبكرًا من منطقتين، تم جمعهم من خلال خدمة الإنترنت المحلى، مع شريحة من

الأصدقاء، وزملاء العمل، والأسر الذين سمعوا عن (الشبكة Web) ولكنهم لم يدخلوا إليها بعد، من العمل أو من المنزل. بعد استئذانهم، زودناهم بأجهزة كمبيوتر محمولة مستعارة وموديمات وتابعنا أنماط ومحتوى نزعاتهم، ثم قارناها مع مجموعتنا المناظرة لهم ممن قاموا بالاستخدام المبكر.

لدهشتنا، رغم أن من قاموا بالاستخدام المبكر أمضوا وقتًا أكثر مع مواقع الشبكة، وكان من الأسهل عليهم أن يقوموا باستعراض بيانات الموقع، إلا أن أمزجة محتوياتهم واستخدام أنماطهم لم تختلف كثيرًا عما فعله من هم فى الشريحة الجديدة. استخدمت الشريحتان الموقع - بصفة أساسية - من أجل معلومات المصالح الخاصة والبحث عن الترفيه، ليس فقط لرصد بعض مخارج وسائل الإعلام الجماهيرية بالموقع. الصحيفة والتليفزيون يقدمان أفضل مصدر للأخبار، وكلتا الشريحتين أشارت إلى بعض الهبوط، وليس هبوطًا دراميًا، لاستخدام وسائل الإعلام التقليدية. (هذا أكدته دراسة أكبر كثيرًا، مؤسسة على مسح قام به عام ١٩٩٦م «مركز أبحاث بيو للناس والصحف») [١٣]. انتهينا إلى أن طبيعة الشبكة المرنة المتفاعلة تتوافق مع أسلوب نشيط للبحث عن المعلومات بالتباين مع «الرصد» الأكثر سلبية مع وسائل إعلام الأخبار المطبوعة والمذاعة التقليدية. إنها ليست حتمية تكنولوچية، بل بيئة لتفاعل تكنولوچى بوسائل واضحة فى قطاعات مختلفة لمصالح الإنسان وتطلعاته.

تمت دراسة ميدانية مماثلة فى پنسلڤانيا [١٤]. فى هذه الدراسة، وجد الباحثون فى جامعة كارنيچى ميلون أن صعوبة التكيف مع التقنية الجديدة قيدت استخدام الإنترنت كثيرًا، خاصة من جانب كبار السن. من فى العقد الثانى من عمرهم، خاصة الذكور منهم، استخدموا أجهزة الكمبيوتر المنزلية الخاصة التى زودهم بها القائمون بالتجربة من ستة إلى عشرة أمثال أكثر مما فعل الآباء. هذه النتيجة، مع ذلك، لا يجوز تعميمها. ركزت الدراسة على طلبة المدارس العليا الذين أحضروا أجهزة كمبيوتر منزلية، مع وجود حافز ضئيل لدى الآباء للمشاركة فى التجربة، وتأييد من الأقران. ومع ذلك، كانت أنماط الاستخدام لجميع الموضوعات متماثلة مع نظائرها فى دراسة «إم. أى. تى» قادت طبيعة تفاعل الموقع المستخدمين إلى موضوعات كثيرة التنوع. وجد الباحثون أن ٥٥٪ من المواقع زارها مستخدم واحد فقط من كل مائة أسرة مشاركة، وأن ١٠٪ فقط من صفحات الموقع زارها ١٠ أو أكثر من المشاركين فى الدراسة[١٥].

كانت هناك إخفاقات كثيرة محبطة فى التجارب الصحفية مع أخبار موجزة تتعلق بالمجتمع، سببت بعض الشكوك، خاصة إذا كان النظام المقترح يعتمد على عمل شاق يقوم به متطوعون. ولكن تجاربهم المبكرة مع الإنترنت وعدت بأشكال جديدة، ومرونة جديدة، وتعريفات جديدة عما يجب أن تكون عليه الأخبار، جزء منها فقط استمد من تيارات وأشكال وسائل الإعلام التقليدية. الأشكال الجديدة تضمنت الأخبار نقاش جمهور المشاهدين والتعليقات التى لا تتيسر فى حقل الإذاعة، والتغطية الشاملة للموضوعات المتخصصة التى لا توجد عادة خارج المجلات المتخصصة. ربما يقوم خليط جديد من حماس الهواة، والصحافة المهنية وشبه المهنية، بإنتاج تعريف جديد للأخبار، واقتصاديات جديدة لإنتاج الأخبار.

فاعلية تقنيات الڤيديو التى برزت، كان لها تأثيرات أخرى. مثلاً، تحدى قدرة السلطات الراسخة فى كيفية تأطير أحداث الأخبار. فى أغلب الأحيان، ينتج «الميكروفون المفتوح» بالموقع لنقاش الجماعات ينتج أفكاراً ورؤى تتدفق إلى «وسائل الإعلام الرسمية» مثل أحاديث الراديو، وأخيراً تعليقات وتغطية وسائل الإعلام التقليدية. فى حالات أخرى، التقنيات المشاركة تصنع أخباراً. ضرب رجال الشرطة البيض للسائق الأسود رودنى كينج كان بالتأكيد سيسجل فى الدفاتر باعتباره ضبط مخالفة مرور روتينية لو لم يكن مصور الڤيديو الهاوى موجوداً. آخذين فى اعتبارهم بروز قضية كينج وبعض الأحداث المماثلة فى الأعوام الحديثة، قد يتزايد أداؤهم لأعمالهم مسلحين بأحدث ڤيديو.

نموذج ڤيديو ـ مركزه ـ موقع الإنترنت قد يكون أكثر شبهًا بحديث الراديو الحالى من تقارير صحف التيار الرئيسى والتليفزيون، رغم أن الوقت لم يحن بعد لنقول ذلك. المنتجون المحترفون والمضيفون أصحاب الجاذبية يثيرون ردود فعل المشاهدين ويحافظون على النقاش حيًا وحجم المشاهدين كبيراً بقدر كاف لإنعاش الاقتصاديات المبنية على أساس الإعلان. حوافز التنافس دفعت المبرمجين إلى مخالفة بعضهم البعض من تنافس أحدهم مع الآخر على جزء صغير من مشاهدى الأخبار والشئون العامة. وهكذا، قام مضيف حديث الراديو روش ليمبو، من المحافظين، وآخرون من الأحرار بالتركيز على الصياغة والتشكيل الأيديولوچى وتركوا التقارير المباشرة لقطاعات أخرى من وسائل

الإعلام. طبقًا لدراسة فورد ـ كارنيجي الحديثة في مركز أينبرج للسياسة العامة، اجتذب برنامج حديث الراديو جمهورًا كبيرًا: ١٨٪ من مواطني أمريكا البالغين قالوا إنهم يستمعون مرتين على الأقل كل أسبوع للمشاركة. المتحمسون لحديث الراديو لم يتوقفوا عن الاهتمام بوسائل الإعلام الرئيسية؛ في الحقيقة، هم يستهلكون أكثر من المتوسط. ولكنهم كانوا بوضوح أكثر نقدًا وشكوكًا تجاه أخبار التيار الرئيسي[١٦].

الاقتصاديات المتغيرة لمهنة الأخبار

فيضان الكتب الجديدة عن حالة السلطة الرابعة، لها توجه جلي إلى أولاً: الاحتفاء بالعصر الذهبي للصحافة الغربية الذي بلغ ذروته في الماضي القريب، وثانيا: الشجب القوي للانحدار الحالي الواضح ـ المفترض ـ للصحافة الجادة[١٧]. يصور التليفزيون، ووسائل الإعلام الجديدة، واقتصادياتها تمثل الشكوك المألوفة، وأبغض الأمور أثناء كشف هذه الروايات.

نقاد وسائل الإعلام الجديدة يتأملون ثلاثة موضوعات رئيسية: استقلال، والشكل، والتمويل. يدور الموضوع الأول حول الحاجة إلى حماية حرية وأمانة المراسلين والمحررين ـ التي لا تضطرهم للاعتذار عنها ـ وهم يوثقون القضايا والأحداث التي تجرى حول إمبراطوريات الشركات. توسع الملكية المشتركة للمؤسسات، والمشروعات المشتركة، وضخامة قيادة الشركات تؤدي حتمًا إلى تحدي تقليد استقلال الصحافة[١٨]. نشرت دراسات عديدة عن مساوئ محتملة انتشرت في الصحف الأكاديمية وصحف التجارة المهنية. من وجهة نظر التنفيذيين في وسائل الإعلام، الحاجة إلى تقليص المخاطر من المنافسين الجدد والسيطرة على الإنفاق التكنولوجي حركت جنون الاندماج. من وجهة نظر النقاد، هذه الضغوط لها تأثيرات مهمة على الاستقامة الصحفية[١٩].

يدور الموضوع الثاني حول أشكال الأخبار. في عالم الصحف، نموذج صحيفة «يو. إس. إيه. توداي» الذي توجهه ـ أبحاث ـ القراء، كان موضع سخرية. هذا الشكل موجز، وبسيط، مطبوع بالألوان، مع رسوم رقيقة، ومحتويات عالمية لطيفة، أكثر توافقًا مع أمزجة عدد من القرّاء. لكنه ليس

بالضرورة مغذى. فى أخبار التليفزيون، النمو- فى الوقت الرئيسى- لشكل المجلة كخليط من الأخبار والترفيه، أثار انتقاداً كمؤشر أكيد للهبوط الصحفى. تركيز الشكل على الأخبار الرقيقة، والشخصية، والشخصيات المشهورة يضعف تقليد الصحافة الجادة العنيفة على نافذة ساعة العشاء لأخبار الشبكة التقليدية. باخرة مشاهدى أخبار الشبكة غرقت، أساساً بسبب منافسة برامج الترفيه من الكابلات ومن الأقمار الصناعية[٢٠]. أشكال مجلة أخبار التليفزيون هى أيضاً من نتاج معركة التنافس المتزايدة لباخرة المشاهدين فى محيط متعدد القنوات[٢١].

الثالث: هو موضوع قيود التمويل، الضغط على عمليات الأخبار المطبوعة والمذاعة لتصبح أكثر كفاءة ومتزايدة الأرباح. شهدت التسعينيات من القرن العشرين قيوداً جديدة على الرحلات الدولية، وإغلاق المكاتب الأجنبية، وضغوطاً جديدة على كفاءة التغطية الصحفية، وتأييداً أقل للتحقيقات الصحفية الطويلة الأمد والباهظة التكاليف[٢٢]. يمكن للإنسان أن يصنف العصر الذهبى للصحافة الجادة على أنه- بصفة أساسية- عصر ذهبى لأرباح تقرب من الاحتكار[٢٣].

فى الولايات المتحدة، اجتذبت الشبكات الثلاث الرئيسية ٩٠٪ من جمهور المشاهدين فى الوقت الرئيسى لبرامج الترفيه. هذا يقدم دعامة جيدة لدخل الإعلان ولعملية أخبار رفيعة المستوى. فى الدول الصناعية الأخرى، أثناء تسعينيات القرن العشرين، أنتجت قلة التعدد، والاحتكارات التى اعتمدتها الحكومة، جمهور مشاهدين ضخماً مماثلاً، وأيضاً (فى الأنظمة التجارية) عمليات مربحة تساند عمليات الأخبار. صحف العاصمة فى العالم الصناعى وسيلة الإعلام الإقليمية المختارة للإعلان عن بيع السلع- وجدت نفسها أيضاً فى أوضاع مربحة رغم أن البعض جادل أن ضغط تكاليف الصحافة الجيدة هو فى الأساس نتيجة ثقافة إدارية جديدة، إلا أن الرابطة بين تطور تقاليد مؤسسات الأخبار مع المنافسة الجديدة، ووسائل الإعلام الجديدة كان لها على الأرجح أهمية قصوى.

كيف يجب علينا أن نستجيب إلى الصدام بين التقنية الجديدة وبين قيم الصحافة المستقلة التى اكتسبت بمشقة؟ ميدان اللعب مقسم بين المتحمسين الحانقين وجذورهم فى التكنولوچيا، وبين الرأسمالية والنقاد والحانقين بجذورهم فى النظرية الثقافية واليسار السياسى. الوسطية المستبعدة قد تبرهن أنها الأرضية الأعلى

هنا ـ من المهم أن لا تساوى بين تغيير البناء وهجران القيم الرئيسية أو بيعها، والمبادئ المحترمة الموجودة الآن لاستقلال السلطة الرابعة، صنع الرأسماليون أغلبها. الخطر الأعظم الآن على استقلال الصحافة هو قبضة الاحتكار أو مصالح الأقليات، أو فى هذه الحالة إعادة إنشاء ندرة اصطناعية.

تسيد الأكاديميون الأمريكيون ومحترفو الأخبار الحوار حتى الآن. وسائل الإعلام الأوروبية، والاسكندنافية على وجه الخصوص، لديها تقاليد صحفية مختلفة ـ مركزها الحزب السياسى ولها توجهات أيديولوجية أكثر. هل ستقوم وسائل الإعلام الجديدة بتقديم الفرص لتنشيط هذه التقاليد أو أنها، بدلاً من ذلك، سوف تعمل على أمركة وتتجير ممارسات الأخبار حول العالم، كما يخشى الكثيرون(٢٤)؟

إحدى الصفات المميزة لأدبيات النقد هى القلق من الهبوط إلى أحط المستويات. أبرزت وسائل الإعلام الإلكترونية الاتصال الفورى ومزدوج الاتجاه. بالتباين مع الصحف والمجلات، يتضح فوراً ما يحبه أو يبغضه الناس. إنهم يحبون صورة الإنسان المحلية والمرئية، ويبغضون الرطانة السياسية المجردة، ومشاهد المؤسسات. نزعات جماهير المشاهدين معروفة جيداً ولكنها ليست، بالضرورة، مفهومة. للأحسن أو للأسوأ مباراة تصنيف تليفزيون هذا العصر سوف تشتد فى الجيل القادم للفيديو الرقمى. اعتبره تحدياً للابتكار المبنى على أسس البحث، بدلاً من اختبار للإرادة الأخلاقية والسياسية.

القرية العالمية

موضوع رئيسى آخر فى تحليل تأثير الاتصالات التكنولوجية الجديدة، هو العولمة كلاسيكية والترليمان، «الرأى العام»، هى اختبار لفهم الجمهور للأحداث البعيدة، فى هذه الحالة، توقعات الأمريكيين للحرب العظمى فى أوروبا(٢٥). بأسلوبه الخاص، قدم لنا قضية العولمة. تحير ليبمان حول الكيفية التى يمكن أن نتوقع أن يتفهم الأمريكيون بها مثل هذه الأحداث على بعد نصف عالم، غير المألوفة، داخل تلك الأحداث ربطت كابلات تحت البحر أوروبا بأمريكا الشمالية منذ زمن الحرب العالمية الأولى، وهكذا تمكنت الصحف من نشر تقارير تلغرافية من ميادين القتال أولاً بأول كل يوم. ولكن الراديو لم يكن بعد شائع الاستخدام، وبطبيعة الحال، التليفزيون والأقمار الصناعية كانت لا تزال بعيدة عن الوجود. كتاب ليبمان لا زال يقرر كثيراً

فى المدارس، حتى بعد ڤيتنام، أول حرب نقلها التليفزيون، وحرب الخليج، أول حرب نقلها التليفزيون ببرامج حية، الموضوعات التى أثارها ليست أقل ملاءمة الآن عما كانت عليه عام ١٩٢٢م عندما نشر كتاب «الرأى العام».

يوجد بالتأكيد تزايد فى تدفق الأخبار عبر الحدود الدولية من خلال الأقمار الصناعية، وشبكات البيانات والتواصل المتبادل بين وسائل إعلام الأخبار الجديدة والتقليدية[٢٦]. قد تكون الولايات المتحدة زعيمة للعالم فى التكنولوچيا الجديدة، ولكنها تعرض أقل مستويات محتوى الأخبار الأجنبية فى وسائل إعلامها، وأقل مستويات الاهتمام بالأخبار الأجنبية ومعرفتها بين جماهير الدول الصناعية. هل توجد بينة أن التدفق العالمى المتزايد لأخبار وسائل الإعلام قد يدفع الرأى العام تجاه عالمية جديدة؟ الإجابة قد تكون ـ ليس بعد. التواصل الإلكترونى لا يمكن أن يعادل اهتمام العالم، وأهم من ذلك، تفهمه.

كشفت الدراسة التى يقوم بها كل أربع سنوات مجلس شيكاجو عن العلاقات الخارجية عن نسبة دائمة قدرها ٣٣٪ من الأمريكيين الذين يعبرون عن اهتمامهم بأخبار الدول الأخرى[٢٧]. أوضحت أيضًا دراسات «مركرپيو» عن الاهتمام بالأخبار، عدم وجود اهتمام ـ بصفة مستقرة ـ بأخبار السياسة الدولية، نمط يعلمه، خاصة، شباب مواطنى الولايات المتحدة. فقط واحد من كل عشرة ممن دون الثلاثين من العمر هم الذين يتابعون هذه الأحداث عن قرب[٢٨].

ولكن عمر الأنظمة الرقمية ما زال صغيرًا. انتشار أجهزة الكمپيوتر المنزلية مع الموديمات فى الولايات المتحدة وصل حديثًا فقط إلى مستوى واحدة من كل ثلاث أسر تمتلكه وهم، بطبيعة الحال، من بين الأسر الموسرة[٢٩]. رغم الإعلان المدوى أن الـ«سى. إن. إ» أصبحت متاحة فيما يقرب من ١٠٠ دولة حول العالم (حقيقة يدركها جيدًا المسافرون العالميون الذين يقيمون فى أرقى الفنادق)، إلا أن انتشارها لم يصل بعد إلى نسبة ١٪ من سكان العالم، رغم الوجود العريض للكابلات فى أوروبا، وأمريكا الشمالية، واليابان[٣٠]، فى العالم الصناعى، استغرق التليفون ما يقرب من ٧٥ عامًا لكى يصل إلى انتشار قرب عالمى[٣١]. رغم أن انتشار وسائل الإعلام الجديدة يتحرك بسرعة أكبر، إلا أن الوقت ما زال مبكرًا لقياس محدد.

الدوافع التكنيكية لهذا الانتشار كانت، كما سبق، مباشرة نسبيًا، عملت الهجرة إلى الاتصالات الإلكترونية منافسة دولية قوية بين الكابلات ـ ذات الألياف الضوئية ـ تحت البحر، وشركات الإرسال بالأقمار الصناعية، وإلى قدر أقل،

شبكات الميكروويف الأرضية. التحدى التكنيكى هو الحصول على معلومات أكثر وأكثر من خلال بنية تحتية موجودة أثناء إنشاء الوصلات الإلكترونية الجديدة، بل والأكثر تطوراً، وتلك هى الاختبارات التى تصور بها الرأسمالية حيويتها. هناك عدد من المتنافسين الذين استثمروا بثقل فى الشبكات الرقمية، يبحثون بيأس عن الأعمال[٣٢]. أسعار الاتصال الدولى، والڤيديو، والبيانات تنخفض دراميّا، التكاليف الأقل أصبحت واضحة لمستهلك الاتصال التليفونى الدولى البعيد[٣٣]. التأثير السائد لانخفاض التكاليف يظهر أيضًا فى تزايد تدفق البيانات المالية، والأخبار الدولية، وبرامج الترفيه عبر الحدود الدولية.

ولكن التكاليف هى مجرد جزء من الصورة. مع تزايد اندفاع التدفقات الضخمة للاتصالات الرقمية عبر الحدود القومية، أصبحت حماية الحدود السياسية وحراستها أكثر صعوبة[٣٤]. شاحنة مليئة بمجلات الأخبار تعبر الحدود يمكن التعرف عليها، وعند الضرورة، القبض عليها. فى العهود المبكرة، هذه الإذاعات القليلة التى تخترق الحدود كان يمكن تشويشها، إذا وجد أنها عدوانية سياسيّا[٣٥]. ولكن، كيف يمكن وضع الإنترنت تحت المراقبة والتحكم فيه؟ بعض أنظمة الحكم التسلطية حول العالم سوف تقوم، دون شك باصطياد، موقع إنترنت معادى، أو رسالة حمقاء بالبريد الإلكترونى وتقوم بتعذيب المذنبين بطقوس ملائمة. زعم الرقابة يعلن بحسم. ولكن حقيقة الموضوع هو أن سلطات الدول الصناعية يفقدون الآن القدرة على مراقبة أوحتى رصد اتصالات المواطنين الداخلية والدولية. يستحيل، ببساطة، رصد كل نبرة إلكترونية. مع قليل من الدقات على مفاتيح لوحة الكمپيوتر الشخصى، يمكن للمواطنين تشفير الرسالة التى نتجت من تيار رقمى، قد تحتاج شهوراً من العمل الشاق لكى تتمكن أجهزة الكمپيوتر الحكومية فك شفرتها (إذا ما تمكنت السلطات فى المقام الأول، من العثور على النطاق الرقمى)[٣٦].

لأن الإنترنت يعتم التمييز بين الاتصال بين شخصين وبين شبكة الاتصال الإذاعى، فهو لذلك يعتم التمييز بين الحديث الخاص والحديث العام. أنظمة القمع لدى دول الحكم التسلطى، التى صممت لكى تمنع الحديث الذى تعتبره ضد الأمن القومى، تركز على الاتهام على التحريض والشغب، محرضًا للغوغاء على أحد

أركان الشارع يسهل العثور عليه وتهذيبه، أكثر من العثور على مفكر وناقد مجهول على جهاز الكمبيوتر.

مجال الجمهور

فى وسائل الإعلام فى الحكم التسلطى، الخط الرسمى للبلاغة العامة، كثيراً ما يشاهده الجمهور بالريبة الملائمة. هناك تقليد قديم، أن يقوم أعضاء محنكون من المشاهدين بقراءة ما بين السطور ليتفهموا أدق التغييرات فى السياسة والاستراتيجية. توجد أمثلة عديدة للأكاذيب التى أجاز الرسميون إذاعتها والتى أدرك الجمهور عامة أنها كاذبة وكانوا، أحياناً، يذكرون ذلك بحرية فى نقاشهم الخاص(٣٧). هذه الدينامية بين الرسميين وقاعدة الجمهورة هى التى ركز عليها يورجين هابيرماس فى احتفاله بصالون مجتمع القرن التاسع عشر بأوروبا(٣٨). بأكثر المقاييس، وسائل الإعلام التى نشأت، شاملة حديث الراديو، وخاصة الإنترنت، والشبكة، سوف تثرى وتقوى هذا التقليد لمجال جمهور مرتج. أدبيات النقد فى أبحاث الاتصالات الجماهيرية، جادلت طوال عقود أن رطانة الأخبار الرسمية اقتمت الروابط بين السياسة العامة وبين ظروف الحياة اليومية الخاصة. قد نتوقع أن اللغة العامة السائدة لوسائل الإعلام سوف تستمر فى التفاعل مع لغة الشارع الخاصة. ولكن ـ طبقاً للتنبؤ ـ إذا قامت وسائل الإعلام الجديدة بتعزيز حقيقى مجموعة صغيرة، فإن أشكالاً جديدة من الحديث الخاص سوف تهاجر بفاعلية إلى الهجرة من الشارع إلى وسائل الإعلام الجماهيرية التى استمرت فى البقاء.

دراسة مايكل شودسون عن تطور صناعة الأخبار الأمريكية، مثل دراسة ليبمان، أصبحت كلاسيكية واستمر استخدامها كثيراً فى تدريس الصحافة، وسياسة الصحف، والرأى العام(٣٩). إنه كتاب له رسالة، وخاصة لشباب القرّاء الذين نشأوا مع أخبار وسائل الإعلام الجماهيرية. واتخذوا إدراكهم لحقيقة الأخبار على أنه حقيقة مفروغ منها. أوضح شودسون بقوة أن الأخبار هى ظاهرة مبنية اجتماعية. الموضوعية المثالية للسلطة الرابعة تكمن جذورها فى اقتصاديات تنافس الصحف مع نهاية القرن العشرين. وأيضاً، كظاهرة مبنية اجتماعيا، وسياسيّا،

واقتصاديّا، تعريف الأخبار قد يتطور أكثر استجابة للاحتياجات الجديدة والحوافز الجديدة.

يحدق الصحفيون المحترفون فى اتجاه اقتصاديات جديدة، وتقنيات جديدة، ومنافسة جديدة، أمامهم قد تميل إلى إدارة العربة لكى تحمى المبادئ والأساليب القديمة لأداء العمل. بالتأكيد، توجد قيم كثيرة لكى تحميها. ولكن، فى أوقات التغيير الدرامى، توجد أيضًا فرصة للتأثير على تعريف الأخبار بأساليب إيجابية، واكتشاف الدينامية الدقيقة للحديث العام والخاص بأساليب جديدة، وفحص البرامج السياسية بعمق أكثر، واكتشاف، جماعات أخبار جديدة ذات اهتمامات جديدة مجالات أخبار جديدة. بناءً على التاريخ، لدينا سبب لكى نتوقع أن أخبار الأنظمة الرقمية سوف تصبح أكثر من كونها أخبار الأمس على شاشة الكمبيوتر.

* * *